بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

من العقبات الكبرى أمام فهم التصوف والصوفية، ومن ثَمَّ أمام الموقف الموضوعى والمتوازن منهما : **عقبة الخلط بين ألوان التصوف.. وعقبة الخلط بين حقيقة التصوف وبين ما عليه الكثير من «الطرق الصوفية» فى الواقع الذى نعيش فيه..**

ولإلقاء الأضواء الكاشفة والمكثفة، على معالم هذه «القضية – المشكلة» نقدم هذه الإشارات والتنبيهات :

* فالتصوف ليس نهجًا واحداً .. إذ منه «التصوف الشرعى»، الذى هو علم القلوب والسلوك والإحسان المضبوط بضوابط الشريعة وأحكامها.. وهو الذى كان عليه كبار الزهاد والأقطاب والعارفين الذين سلكوا طريق المجاهدات والرياضات الروحية، منذ عصر صحابة رسول الله ﷺ وحتى هذا العصر الذى نعيش فيه.. لقد جاهدوا أنفسهم وغرائزهم وشهواتهم وكل زخارف الدنيا، حتى الكثير من حلالها وطيباتها، وصعدوا

بأرواحهم على طريق «المقامات والأحوال» يبتغون القرب والفناء في صفات الجلال والكمال والجمال للذات الإلهية حتى فنى عن مشاغلهم كل ما سوى الله.. ومع هذا، وفي ذات الوقت، عاشوا قضايا الإسلام وأمته، فكانوا أئمة الجهاد الذى خاضته الأمة فى مواجهة المخاطر والتحديات.. لقد أقاموا الدين فى قلوبهم وسلوكهم.. وجاهدوا أعداءه فى ميادين القتال.. وقادوا الأمة فى مقاومة الاستبداد وحكم التغلب والمتغلبين.. وزادوا عن حياض دار الإسلام، ووسعوا دوائر انتشار هذا الدين الحنيف بالقدوة والنموذج والمثال.. كانوا أئمة فى فقه الورع وفى فقه الواقع والأحكام على حد سواء.

* ومن التصوف - كذلك - لون فلسفى باطنى، غرق أصحابه فى الباطنية، التى تحللت من الشريعة والأحكام والتكاليف، سالكة سبيل التأويل المنفلت من ضوابط اللغة وقواعد الدين.. ولقد مثّل هؤلاء - فى تأريخ الأمة - نزعة شاذة، تماهت مع نظائرها من النزعات الباطنية فى اللاهوت النصرانى حينًا.. وفى «القبالة اليهودية» حينًا آخر.. وفى الديانات الوضعية الآسيوية فى بعض الأحايين.. ولقد مثّلت هذه النزعات الباطنية - فى التاريخ الإسلامى - «غَبَشًا» لحق بنقاء العقائد الإسلامية،

بل ومنافذ لاختراقات «الآخر الدينى والفلسفى» لبيضة الأمة وحياض دار الإسلام.. وكان ظهور هذه النزعات الباطنية – كما يقول جمال الدين الأفغانى [١٢٥٤ – ١٣١٤هـ ١٨٣٨ – ١٨٩٧م] – بداية الانحطاط الذى أصاب حضارة الإسلام[١].

* أما «الطرق الصوفية»، فإنها وإن بدأ الكثير منها بدايات صحيحة.. وتجديدية.. وجهادية.. إلا أن الكثير من الذين توارثوها – باستثناء من عصم ربى – قد غرقت فى بحار البدع والشعوذات والخرافات.. فخلطت صلاحاً قليلاً بالكثير الذى أفسد العقائد عند عامة الأتباع والمريدين..

ولقد تحدث الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده [١٢٦٦ – ١٣٢٣هـ ١٨٤٩ – ١٩٠٥م] – الذى جمع قلب الصوفى إلى عقل الفيلسوف – والذى أرجع كل ما أنعم الله به عليه إلى التصوف عندما قال: «**إن كل ما أنا فيه من نعمة فى دينى فسببها التصوف**»[٢] – تحدث عن التطور الذى لحق التصوف

---

(١) الأفغانى [الأعمال الكاملة] ص ١٥٨ – ١٦١ – دراسة وتحقيق: الدكتور محمد عمارة. طبعة القاهرة سنة ١٩٦٨.

(٢) محمد عبده [الأعمال الكاملة] جـ٣ ص ٥٣١ . دراسة وتحقيق: الدكتور محمد عمارة. طبعة بيروت سنة ١٩٧٢م .

الحق، والذى انتهى به إلى المظهريات والخرافات والصياغات التى اقتربت ظواهرها من الشركيات.. فقال:

«إنه لم يوجد فى أمة من الأمم ما يضاهى الصوفية فى علم الأخلاق وتربية النفوس.. وإنه بضعف هذه الطبقة وزوالها فقدنا الدين.. وإن سبب ما ألم بهم هو تحامل الفقهاء عليهم، وأخذ الأمراء بقول الفقهاء فيهم، فأولئك يكفِّرون، وهؤلاء يعذِّبون ويقتلون.. حتى ظهروا بغير مظهر طائفتهم.. ثم قام أناس يقلدونهم فيما كان يظهر منهم مما كانوا مضطرين إلى الظهور به، وهو ليس من التصوف، ولم يعرفوا من أمورهم الصحيحة إلا قليلاً. وهكذا كان البعد عن التصوف رويداً، حتى انقرضت هذه الطبقة انقراضًا تامًّا إلا ما لا نعلم.

ولقد صدر عن الصوفية كلام ما كان ينبغى أن يظهر ولا أن يُكتب، ومنه ما يوهم «الحلول»، ولو كنتَ سلطاناً لضربت عنق من يقول به..

إن علينا أن نعمل بالكتاب لأنه واضح مبين.. وبالسنة لأنها بيضاء واضحة.. وبسيرة السلف، لأنهم أعلم الناس

بهما.. وأما كلام الصوفية فقد صرحوا بأنه رموز واصطلاحات لا يعرفها إلا أهلها الذين سلكوا هذه الطريقة إلى نهايتها، وصرحوا بأن من أخذ بظاهر أقوالهم ضل، وهذا ظاهر، فإن كتب محيي الدين بن عربي [٥٦٠ - ٦٣٨هـ ١١٦٥ - ١٢٤٠م] مملوءة بما يخالف عقائد الدين وأصوله، وهذا كتاب [الإنسان الكامل] للشيخ عبد الكريم الجيلي ٧٦٧ - ٨٣٢هـ ١٣٦٥ - ١٤٢٨م] هو في الظاهر أقرب إلى النصرانية منه إلى الإسلام، ولكن هذا الظاهر غير مراد، وإنما الكلام رموز لمقاصد يعرفها من عرف مفتاحها.

وعندما كنتُ رئيساً للمطبوعات أمرت بمنع كتاب [الفتوحات المكية] وأمثالها، لأن أمثال هذه الكتب لا يحل النظر فيها إلا لأهلها..

وأنا لا أنكر أن للصوفية أذواقاً خاصة وعلماً وجدانيًّا - بل وربما حصل فيّ شيء من ذلك وقتاً ما - لكن هذا خاص بمن يحصل له، لا يصح أن ينقله لغيره بالعبارة ولا أن يكتبه ويدونه علمًا. إن هذا «الذوق» يحصل للإنسان في حالة غير

طبيعية، ولكونه خروجًا عن الحالة الطبيعية لا ينبغى أن يُخاطب به المتقيد بالنواميس الطبيعية..»[1].

هكذا تحدث الإمام محمد عبده حديث الخبير بتصوف الصوفية وفقه الفقهاء.. والخبير بالتاريخ الذى تحول بالتصوف من «علم الأخلاق وتربية النفوس» إلى صياغات جهلت جماهير الطرق الصوفية حقائقها، وغابت عنها مفاتيح هذه الحقائق، ولم يبق لها منها سوى «**الظواهر المملوءة بما يخالف عقائد الدين وأصوله**».

* فالدين يؤخذ من الكتاب والسنة، ومن فهم السلف لهما، لأنهم الأعلم بهما.

* وأذواق الصوفية حقائق، لكنها ثمرات لحالات غير طبيعية، ولذلك لا يجوز التصريح بها ولا كتابتها لمن يعيشون فى النواميس الطبيعية.

* ولقد سطر الصوفية تراثًا امتلأت ظواهره بكثيرمن

---

(١) محمد عبده [الأعمال الكاملة]. جـ٣ ص ٥٢٨، ٥٣٠، ٥٣١

المخالفات العقدية، ولذلك وجب حجب هذا التراث عن الذين لا يملكون مفاتيح معرفة حقائق هذه الظواهر.. ولأن هذا لم يحدث، فلقد شاع فى أوساط «الطرق الصوفية» من العقائد والمقولات ما جعل الفقهاء يخوضون صراعًا طويلاً مع الصوفية.. حوّله الأمراء إلى صراع دام فى كثير من الأحيان.. الأمر الذى ألجأ الصوفية إلى أسرار ورموز زادت حقل التصوف غموضًا وبلبلة واضطرابًا.. الأمر الذى باعد بين هذه الطرق الصوفية وبين حقيقة التصوف كعلم للأخلاق وتربية النفوس.

هكذا تحدث الفيلسوف الصوفى – الإمام محمد عبده – فشخَّص هذه «القضية – المشكلة» تشخيصًا عبقريًّا.

* * *

ولقد زاد الطين بلة – فى واقعنا الحديث والمعاصر – غواية المستعمرين والحكام المستبدين لكثير من «الطرق الصوفية»، حتى تحولوا عن سنن الأسلاف – الذين ينتسبون إليهم – تحولاً كبيراً..

* ففى الجزائر – مثلاً – كان الأمير عبدالقادر الجزائرى [١٢٢٢ – ١٣٠٠هـ ١٨٠٧ – ١٨٨٣م] قطبًا من أقطاب

التصوف، ومريداً لمحيى الدين بن عربى.. ولقد قاد الجهاد الإسلامى والنضال الوطنى ضد الاستعمار الفرنسى قرابة العشرين عامًا.. لكن «الطرقية» الذين خلفوا من بعده سقطوا فى غواية الاستعمار الفرنسى، الذى أراد طى صفحة العروبة والإسلام فى الجزائر، وفرنسة الجزائريين.. حتى لقد أعلن العزم على تشييع جنازة الإسلام بالجزائر، وتحويلها إلى مهد لحضارة روحها الإنجيل!.. ومع ذلك، خان «الطرقية» عروبتهم وإسلامهم ووطنهم، ودعوا إلى الاستسلام لسياسة الاستعمار، زاعمين أنها إرادة الله!.. وقالوا :

«إذا كنا أصبحنا فرنسيين فقد أراد الله ذلك، وهو على كل شىء قدير، فإذا أراد الله أن يكسح الفرنسيين من هذه البلاد فعل، وكان ذلك عليه أمراً يسيراً، ولكنه - كما ترون - يمدهم بالقوة، وهى مظهر قدرته الإلهية، فلنحمد الله ولنخضع لإرادته»(١)!

---

(١) مجلة [الشهاب] - الجزائرية - جـ٧ مجلد ١٤ - وهى تنقل عن جريدة «الربيبليكان» - الفرنسية - عدد ٢٢-٦-١٩٣٨م - وانظر كتابنا [مسلمون ثوار] ص٤٨١ طبعة دار الشروق - القاهرة، سنة ٢٠٠٦م.

ولم يكتف «الطرقية» – الجزائريون – بهذا الإفك وهذه الخيانة للإسلام ولتراث التصوف وجهاد المتصوفة، وإنما وقفوا مع الاستعمار الفرنسى يحاربون الحركة الإصلاحية التى قادتها «جمعية العلماء المسلمين الجزائريين» – التى أسسها الإمامان عبد الحميد بن باديس [١٣٠٨ – ١٣٥٩هـ ١٨٨٩ – ١٩٤٠م] والبشير الإبراهيمى [١٣٠٦ – ١٣٨٥هـ ١٨٨٩ – ١٩٦٥م].

* وبعد أن كان تراث الصوفية وتاريخهم قد وضع أقطابهم فى أحضان الأمة، يقودون ثورات الفقراء والمستضعفين – حتى لقد اشتهروا بلقب «الفقراء» – .. ويزحفون مع هؤلاء الفقراء لجهاد الغزاة – من الصليبيين والتتار والأمبريالية الأوربية فى العصر الحديث – .. بعد أن كان الحال كذلك، رأينا – فى واقعنا الحديث والمعاصر – بونابرت [١٧٦٩ – ١٨٢١م] – الذى قاد الحملة الفرنسية على مصر والشرق – ١٧٩٨م – يجتذب إلى حبال غوايته الاستعمارية – مع قطاعات كبيرة من الأقليات النصرانية – قطاعات من أرباب «الطرق الصوفية» .. فاحتفلوا معه بالمولد النبوى الشريف.. وروجوا لأكذوبة إسلام بونابرت لدى عوام المريدين!..

* كما رأينا – فى واقعنا الراهن – تقرير « مؤسسة راند » الأمريكية يشير على صانع القرار الأمريكى باحتضان « الطرق الصوفية »، لأن عداءهم للإسلام الجهادى والسياسى، يجعلهم حلفاء للأمبريالية الأمريكية.. ولما بين باطنيتهم وبين النصرانية الغربية من وشائج وصلات!!.. ولذلك، رأينا سفراء أمريكا – بمصر مثلاً – ضيوفًا دائمين على موائد « شيوخ الطرق الصوفية » فى « موالد » أولياء الله الصالحين!!.

* وبعد أن كان الزهد جامعًا يجمع أقطاب الصوفية على مر تاريخ الإسلام، رأينا – فى واقعنا المعاصر – « مشايخ للطرق » يعيشون حياة الترف والبذخ والإسراف، ويمدون أيديهم إلى سحت النظم المستبدة – الآتى من الشرق والغرب – .. وفى مقابل هذا السحت يروجون – بالكتب والمقالات – لدعوات مجنونة، ينادى بعضها بإحياء الدولة الفاطمية – التى كانت تكتب لعن الخلفاء الراشدين والصحابة على المنابر والمحاريب بحروف من ذهب!– .. كما تدافع – هذه الكتب والمقالات – عن « التشيّع الصفوى » ، الذى تحالف مع الصليبية والصهيونية

على الغزو والتدمير للعراق وأفغانستان!.. كما تفترى – هذه «الطرق» – لقاء هذا السحت – على رموز إسلامية جمعت بين الجهاد والاجتهاد والتجديد – من مثل شيخ الإسلام ابن تيمية [٦٦١ – ٧٢٨هـ ١٢٦٣ – ١٣٢٨م] الذى وصفه الإمام محمد عبده بأنه «**أعلم الناس بالسنة، وأشدهم غيرة على الدين**»[١].. فجاء شيوخ هذه «الطرق» – لقاء هذا السحت الذى يتمرغون فيه – ليقولوا عن شيخ الإسلام ابن تيمية:

«إنه جاهل بأصول الدين جهلاً مركبًا. وقد حكم على نفسه بالشرك وعبادة غير الله، وهو لا يشعر.. وهو مكذّب لنصوص كتاب الله تعالى وصريح سنة نبيه ﷺ وصاحب حكم فاجر.. وملبّس وكذاب وجبان. وهو الذى استبدل عقيدة التثليث بعقيدة التوحيد..»[٢]!!

---

(١) [الأعمال الكاملة] جـ٣ ص ٣٥٩ – طبعة القاهرة سنة ١٩٩٣م.

(٢) [خطر تقسيم التوحيد على عقائد المسلمين] ص ٥٦، ٦٦، ٦٧. من إصدارات «مركز أبحاث الطريقة العزمية». طبعة القاهرة سنة ١٤٢٦هـ سنة ٢٠٠٥م. وانظر كتابنا [فتنة التكفير بين الشيعة والوهابية والصوفية] طبعة دار السلام – القاهرة سنة ١٤٣٠هـ سنة ٢٠٠٩م.

* وبعد أن كان الصوفية الأوائل يسعون - على طريق «المقامات والأحوال» - إلى الفناء فى صفات الذات الإلهية .. رأينا «الطرقية» المعاصرين يسعون على طريق التبعية لحكام الفساد والاستبداد.. فأصبحت «مشيخات الطرق الصوفية» تابعة وذائبة فى دواوين الملوك ورؤساء الجمهوريات!..

* * *

تلك إشارات - مجرد إشارات - لنماذج - مجرد نماذج - للانحطاط والضلال اللذين أصابا بعض الطرق الصوفية فى واقعنا الحديث والمعاصر، فباعد بينها وبين حقيقة التصوف وسيرة المتصوفة الحقيقيين.. وأغرقها فى الشعوذات والخرافات والضلالات حتى الأذقان!.. حتى لقد بات هذا الحقل من حقول الواقع الإسلامى المعاصر مليئًا بالمقولات والممارسات التى اختلط فيها الصلاح بالفساد، والهدى بالضلال.. الأمر الذى جعل من أهم الفرائض الفكرية - فى واقعنا الراهن - **العمل على ترشيد الواقع الصوفى المعاصر، بالعودة إلى حقيقة التصوف .. وحقيقة المتصوفة العظام فى تاريخ حضارة الإسلام .**

– التصوف، الذى وصفه الإمام محمد عبده بأنه «**علم الأخلاق وتربية النفوس**».

– والصوفية ، الذين جمعوا بالوسطية الإسلامية – بين العقل والقلب.. وعاشوا فى أحضان الأمة، ينتصرون للحرية على الاستبداد.. وللفقراء على المسرفين.. وللحق على الباطل .. وللهدى على الضلال.

* * *

ولأن المقام – فى هذه الدراسة – هو مقام تقديم النماذج وضرب الأمثال، لترشيد الواقع وتصحيح المسار – آثرنا الوقوف – هنا – عند تقديم نموذجين من أعظم نماذج الصوفية والتصوف فى تراث الإسلام.. جمع كل واحد منهما بين الهدايات الأربع: – هدايات النقل والعقل والتجربة والوجدان .. فكان للعقل فى تصوفهما المكان البارز الذى نافس مكانه عند الفلاسفة والحكماء العظام.

* نموذج : الصوفى .. السلفى .. الفيلسوف الحارث ابن أسد المحاسبى [١٦٥ – ٢٤٣هـ ٧٨١ – ٨٥٧م] .

* ونموذج: الصوفى .. الفيلسوف .. الفقيه .. الأصولى حجة الإسلام أبو حامد الغزالى [٤٥٠ - ٥٠٥هـ ١٠٥٨ - ١١١١م] .

سائلين الله - سبحانه وتعالى - أن يجعل من هذا الكتاب عامل ترشيد وإرشاد ورشاد للواقع الفكرى الذى نعيش فيه .. وذلك حتى تجمع ثقافتنا الإسلامية المعاصرة بين هدايات : العقل .. والنقل .. والتجربة .. والوجدان .. وحتى تكون خطرات القلوب مرطّبة لحسابات العقول .. وتكون حسابات العقول موقظة وضابطة لخطرات القلوب .. وحتى تبرأ ساحتنا الفكرية من الفصام النكد بين أهل القلوب وأهل العقول .. هذا الفصام الذى أفرز - فى واقعنا الفكرى - : خبراء لا قلوب لهم .. ومتصوفة مجردين من العقول ! .. والله من وراء القصد .. إنه نعم المولى ونعم النصير .

١٥ جمـاد أول سنة ١٤٣٢هـ — **دكتور**

١٨ إبريل سنة ٢٠١١م — **محمد عمارة**